يوسف النبي (صلوات الله عليه) في المنمنمات العثمانية

د . شيماء جاسم البدري / كلية الآثار / جامعة القادسية

الملخص :

قص علينا القرآن الكريم قصص الأولين وأنبائهم لنعتبر منها ، وأورد لنا العديد من قصص الأنبياء وما مر عليهم من مآسي وما لاقوه من ويلات بسبب تعنت اعداء الدين على مر العصور . وكان لنبي الله يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام النصيب الأوفر بينهم ، ذلك أن الله جل وعلا أفرد له في القرآن الكريم سورة كاملة عُرفت باسمه "سورة يوسف" تناولت حياته الكريمة ، وقد اصبحت هذه القصة محط انظار الفنانين لذا انتجت لها نسخ مخطوطات مزوقة بالصور عديدة في مختلف مدارس التصوير الاسلامي ، وما بحثنا هذا إلا لدراسة صور هذا النبي الكريم في مخطوطات التصوير العثماني المختلفة .

المقدمة :

دعا تشابه أحداث ما مر به الشاعر التركي حمدالله جلبي مع ما عاناه النبي يوسف "ص" من أخوته ، دعاه الى تأليف مثنوي باللغة التركية أسماه يوسف وزليخا ، وهو أول مثنوي في خماسي حمدالله ، ذلك أن حمدالله يعتبر أول شاعر أناضولي نظم فن الخماسي بالتركية(١). ويعتبر عمله هذا أحسن تمثيل لقصة يوسف وزليخا لدرجة أن جميع الشعراء من بعده اقتدوا به وقلده كثيراً من الشعراء بشعر مماثل بلغات البلاد الاسلامية المختلفة كالعربية والفارسية والهندية وغيرها(٢).

وحمدالله هو أصغر أبناء شيخ آق شمس الدين ، واسمه الشعري "حمدي" ويعد احد اهم شعراء القرن ٩هـ/١٥م(٣) وأن سبب تأليفه لهذا المثنوي كما اسلفنا هو تشابه ما لاقاه من ود أبيه وعداء أخوته ، كالنبي يوسف مما دعاه لنظمه عام ٨٩٧هـ/١٤٩١-١٤٩٢م ، وقد تم عمل عدة نسخ منه في القرون التالية(٤).

وسورة يوسف لها من الآيات مائة واحدى عشرة آية ، وهي سورة مكية باستثناء الآيات (٧,٣,٢,١) فإنها مدنية ، اما موضعها في القرآن الكريم فهي تقع في الجزاءين الثاني والثالث عشر .

ويوسف النبي هو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم صلوات الله ، وقصة يوسف النبي معروفة للجميع كان له من الاخوة احدى عشر ، وهو احب ابناء النبي يعقوب من بينهم من زوجته راحيل لنفسه وهو ما ولد الغيرة والضغينة في نفوس اخوته تجاهه فأضمروا الشر في نفوسهم للتخلص منه بعد اتفاقهم بإلقائه في البئر ظناً منهم انه اصبح أثر بعد عين ، لكن ذلك لم يتم لهم إذ انقذته قافلة تجار ليبيعوه بعدها في سوق النخاسة فيشتريه عزيز مصر لكنه أبتلي بمراودة زليخا زوجة الاخير له فأستعصم وسجن ثم شاء الله ان تظهر براءته وليصبح عزيزا لمصر وأميناً على خزائنها ، وشاءت مشيئة الله جل وعلا ان تقود الظروف اخوة يوسف اليه ليجمع الله شمله بهم بعد سنين عجاف .

ومن ذلك المنطلق كُتبت قصة يوسف مرة تلو المرة بين شعر ونثر ووجد فيها المؤلفون أرضاً خصبة لكتابتهم ، فقد تركوا لمخيلتهم أن تسرح بكتابة قصة يوسف وما جرى عليه ، لاسيما ما لاقاه من قبل أخوته وألقائهم إياه في غيابة الجُب ، وما لاقاه من زوجة عزيز مصر زُليخا تلك المرأة التي اوردتها كتب الاديان السماوية وجاء ذكرها كعاشقة في آداب الشعوب المختلفة ، ذلك العشق الذي لم يكن موضوع الادب الايراني والتركي والعربي فقط ، بل ايضا كان مجال تناول في الفن والشعر والمسرح في الادب الغربي .

فقد نظمت هذه القصة شعراً فارسياً في مخطوط من قبل الفردوسي حوالي عام ٤١٢هـ/١٠٢١م ، ونظمها ليكفر بها عن نظمه أساطير القدماء في الشاهنامة . ثم قام شاعر من اهل القرن الخامس هو عمعق البخاري بنظمها ، لينظم الشاعر الفارسي ملا جامي نسخة اخرى أسماها يوسف وزليخا وهي احدى قصص العروش السبعة التي نظمها عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م ، ونسخة ملا جامي محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة تحت رقم ١٤٤٠٨ ،مؤرخة بعام ٩٥٩هـ/١٥٥١م (٥)، وقد اصطبغت نسخة الجامي بصبغة صوفية جلية يرى فيها يوسف من وجهة نظر المتصوفة ان التأمل الانساني يجذب ثم يقود الى الجمال المطلق وهو الله عز وجل(٦).

وكما اصبحت هذه القصة الغزيرة بالعبر والعظات مضمارا لإبداع الادباء والشعراء فقد كانت مسرحاً تنافس على خشبة منمنماته فرشاة الفنانين في مختلف مدارس التصوير الاسلامي ، لدرجة انه لم يعالج نبياً معالجة يوسف في التصوير الاسلامي من حيث كثرة التصوير(٧).

إذ نُسخ هذا العمل نُسخاً عدة ، ومنها نسخة مانشستر والمحفوظة بمكتبة جون ريلندز تحت رقم NO. 61 ، وهي مؤلفة من ٢٥٥ ورقة تضم أثنا عشر منمنمة ، وأبعادها ١٨,٤X١١,٣ سم

، وهي من نسخ احمد بن محمد الاسكوبي عام ٩٦٥هـ/١٥٥٧-١٥٥٨م ، وبعض ورقها ملون بالوردي والاصفر، ويعاني ورقها من اضرار(٨).

وتحتفظ دار الكتب المصرية بنسختين مزوقتين بالصور من هذا العمل ، الأولى تحمل تاريخ عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م ، وهي مخطوطة في مجلد مجدولة ومحلاة بالذهب ، كُتبت بقلم تعليق بخط رجب بن خير الدين ، في ٢٥٠ ورقة مسطرتها ١٤ سطراً ، وهي محفوظة برقم ٧٦- م أدب تركي . أما النسخة الثانية فهي غير مؤرخة ، هي الاخرى مجدولة ومحلاة بالذهب ، بقلم النسخ ، مؤلفة من ١٧٩ ورقة ، مسطرتها ١٩ سطراً ، وأبعادها ١٠X١٦ سم ، وهي محفوظة برقم ٥ أدب تركي خليل أغا(٩).

كما وتحتفظ مجموعة هانز كراوس بنسخة تحت رقم Grube 219-223 من هذا العمل مؤرخة بمنتصف القرن السادس عشر ، مؤلفة من ٢٩٥ ورقة تضم خمسة منمنمات رائعة ، أبعادها ١١٥X١٩٠ ملم ، كُتبت بخط النستعليق بحجم صغير ، ومسطرتها أحدى عشر سطراً ، مقسمة الى عامودين بواسطة خطوط ذهبية مزدوجة رقيقة ويحيط بها أطار ذهبي ضيق . وهي من نسخ محمود الذي لم يعرف أسمه الثاني ذلك أنه ملطخ بالذهب ، والنسخة هذه فاقدة لغلافها الاصلي(١٠).

أما نسخة شستربيتي بدبلن فهي مؤرخة بنهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر ، السادس والسابع عشر ، وهي محفوظة تحت رقم ٤٢٨ ، وهي مؤلفة من ٢٠٢ ورقة تضم احدى وعشرون منمنمة ، أبعاد المخطوط ٢٠,٣x١٢,٨ سم ، مخططة بهيئة عامودين بواقع سبعة عشر سطراً(١١).

ويضم المتحف البريطاني نسخة أخرى تحت رقم OR.7111 ، مؤرخة بالقرن السابع عشر، وهي على الأرجح سابقة قليلاً لمخطوطة شستربيتي(١٢).

فمن منمنمات(١٣) دار الكتب المصرية (نسخة ٧٦- م ادب تركي) يطالعنا يوسف في واحدة من أهم احداث حياته في قصر عزيز مصر ، الا وهي جمع زليخا لنساء مصر من علية القوم ليشاهدن جمال يوسف ، فبعد أن أشتراه زوجها من مالكه مالك واتخذاه ولداً ، والتي ما أن مرت بها الأيام حتى شغفت حباً بيوسف الصديق وهامت في هواه ، ووسوس لها الشيطان فراودته عن نفسه في قصرها ، وما أن عُلم بالأمر من قبل الناس حتى بات حديثهم في كل مكان وأشيع من قبل نساء مصر أن زليخا راودت فتاها عن نفسه ، فكتمت ذلك في نفسها وأعدت متكأً لهن لتُريهُن الذي لامُنّها فيه ومدى جماله ، وكما جاء في محكم كتابه العزيز بسم

الله الرحمن الرحيم "**فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت اليهنّ وأعتدت لهنّ متكأً وآتت كُل واحدةٍ منهُنّ سكيناً وقالت أخرُج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقُلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم**"(١٤)صدق الله العظيم .

وبعد أن جلست نساء مصر في مجلس زليخا التي تصدرته جالسةً على سجادة مزخرفة واسندت ظهرها الى متكأ أزرق بزخارف ذهبية ، وقد ارتدت ثوباً برتقالياً بزخارف ذهبية وعلا رأسها تاج ذهبي أشبه بالخوذة ذا قمة زرقاء ، وظهر خلفها مدخل المجلس والذي يفضي الى الحديقة وهو مستطيل وضعت عليه ستارة بلون أحمر قانٍ تحليه زخارف ذهبية ، وعلا المدخل عقد مدبب منبطح زخرفت كوشتيه ببديع الزخارف الذهبية على أرضية زرقاء . أخذت زليخا تُشير بيديها الى ضيفاتها وهي تتبادل معهن أطراف الحديث وهن لاهيات بتقطيع ثمرة الأطرج ، ليدخل يوسف عليهن بعدما أمرته زليخا بفعل ذلك ، وقد صور وهو يقف عند مدخل آخر للمجلس مرتدياً قفطاناً داخلياً أخضراً شُد وسطه بحزام أزرق وعلاه قفطان آخر بنصف كم ، وزخرف القفطانان بزخارف ذهبية ، وعلت رأسه عمامة بيضاء وأحاطت برأسه هالة بشكل شعلة اللهب مرتفعة للأعلى ذهبية اللون ، وأرتدى خفاً(١٥) في رجليه ، وأمسك بيده أبريق(١٦) ذهبي وضع في صينية . وما أن رأين النساء يوسف حتى أصبن بالدهشة لجماله ووصل الأمر بهن أن قطعن أيديهن بالسكاكين التي رمينها هي والفاكهة على الأرض ، بل وصل الأمر الى أبعد من ذلك ، وهو أن فقدت البعض منهن وعيها وهو ما يدل على شدة الصدمة . ارتدت النساء ثياب ذات تصميم واحد وهو ضيق قليلاً من الأعلى بأكمام طويلة لحد المعصمين ويتسع من منطقة الحزام الى الأسفل ، وشدت بعض النساء وسطها بحزام ، وعلت رؤوسهن قطعة قماش تدلت على الرقبة فيما ثُبتت على الرأس بحلق ذهبي ، وزُينت جميع تلك الثياب والأرضية والجدران زخارف دقيقة غاية في الروعة ، وطغى عليها استخدام التذهيب بكثرة .(منمنمة رقم ١)

اما المنمنمة الثانية في هذه النسخة فهي قريبة الشبه جدا بتصميم المنمنمة السابقة لها من حيث الهيئة المعمارية والزخرفية والتذهيب ، وقد توسطها يوسف وقد احاطت برأسه هالة من شعلة اللهب والى جانبه زليخا وقد شبكت ذراعها بذراعه واخذت تتحدث اليه وترمقه بنظراتها المليئة بالعشق .

هذا وقد جلس حارس عند بوابة القصر وأمسك بيده عصا طويلة ، فيما شارك يوسف جلسته فتاتان عند مقدمة المنمنمة ، واخرى تنظر اليهما من اعلى نافذة عن يمين المنمنمة وقد غلب على الهيئة العامة للمنمنمات الطابع العثماني في الرسم .(منمنمة رقم ٢)

اما نسخة دار الكتب المصرية الثانية ذات الرقم (٥ ادب تركي – خليل اغا) فقد صورت لنا في احد منمنماتها القافلة التجارية وهي تقوم بمساعدة يوسف للخروج من البئر الذي القاه اخوته فيه إذ قام احد افراد القافلة بإمساك يد يوسف بكلتا يديه وهو يتحدث الى شيخ كبير في السن تعرضت ملامح وجهه الى التلف ولا نكاد نرى سوى لحيته البيضاء ، فيما وقف عن يمين يوسف شخص آخر يحاول مساعدته في الخروج من البئر بواسطة حبل يقوم برفعه وقد تعرضت ملامح وجهه هو الآخر الى التلف التام ، بدا يوسف بعمر الصبا وقد احاطت برأسه الشريف هالة بهيئة شعلة اللهب ارتفعت اسنتها الى الاعلى . وقف شخص في مقدمة المنمنمة في الزاوية اليمنى وقد ارتدى قميصا طويلا وصل لحد الركبة زَم وسطه بحزام احمر وقد أمسك بيديه جرار فخارية على ما يبدو ، كما انتصبت فوق ارض خضراء معشوشبة جرتين ذهبيتين في مقدمة المنمنمة عن شمالها .

اما خلفية المنمنمة فقد انتصبت في وسطها خلف مجموعة من التلال شجرة كثيفة الاوراق قسمتها الى قسمين الايمن منها ظهرت فيه اثنين من الجمال امتازت برقبتهما الطويلة فيما وقف جمل وحيد بشكل امامي عن شمال الشجرة خلف سلسلة من الجبال الاسفنجية لتترامى خلفها الاراضي الشاسعة بشجيرات انتثرت هنا وهناك .(منمنمة رقم ٣)

وقد صورت لنا احدى منمنمات النسخة السابقة يوسف وقد وُضِع في احدى كفتي ميزان حُملت بواسطة ثلاثة حبال فيما يضع شخصا وقف خارج حدود اطار المنمنمة اكياس نقود في الكفة الاخرى ليزنه لزليخا التي جلست داخل ايوان علته قبة خضراء بميل ورقبة ذهبية . جلست زليخا القرفصاء وارتدت قفطان ازرق بحزام وزخارف حمراء وقد علا التاج الذهبي الثلاثي الفصوص رأسها وراحت تنظر بدقة الى كل ما يدور امامها .

تميز لباس يوسف بالفخامة والثراء سواء في زخرفته او ما يزين رقبته من حلي ذهبية اضافة الى حزامه الذهبي الذي زُين في منتصفه بوردة مفصصة .

احتل مقدمة المنمنمة مجموعة من الاشخاص بين حامل لأكياس على ظهره وبين واقف اضافة الى امرأة وقفت في الزاوية اليمنى وقد حملت قطعة قماش بيدها تبدو كأنها متسولة راحت تنظر ليوسف .

ضمت هذه المنمنمة تفاصيل معمارية من عقود نصف دائرية واعمدة بتيجانها وقواعدها الناقوسية ، اضافة الى عقد بورصة الذي اعتلى زليخا وآخر تحتها ، كما نشاهد الواح الرصاص تحت القبة ، كل هذا يضاف اليه الاثاث متمثلا بالسجادة التي جلست عليها زليخا وهي من

النوع المعروف بسجاجيد عشاق(١٧)، فيما اتكأت الى مخدة حمراء كبيرة الحجم وهي من انواع المفروشات التي اتحفتنا بها المنمنمات العثمانية في القرن العاشر الهجري (١٦م).(منمنمة رقم ٤)

ولم يقتصر تصوير الفنان للأحداث داخل الاماكن المغلقة بل صور بعضا منها في الهواء الطلق مستفيدا مما تنعم به الطبيعة من جمال أخاذ بما تحويه من الارض المعشوشبة والازهار المتناثرة ، ففي (منمنمة رقم ٥) والتي صورت لنا احدى الاحداث التي مر بها يوسف في مسيرة حياته صورت احداثها في الهواء الطلق ،إذ نشاهد إخوة يوسف **يبيعونه(ابتهاج)** لقافلة التجّار التي مرت بطريقهم بعد أن ألقوه في الجب وأستخرجه أفراد تلك القافلة ، فقد ذكر جل وعلا في القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم "**وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بُشرى هذا غلام وأسروه بضاعةً والله عليمٌ بما يعملون**"(١٨) صدق الله العظيم .

وقف إخوة يوسف عن يمين المنمنمة في مجموعتين الأولى ضمّت ستةً منهم تقدم أحدهم وهو يُعطي الرقعة التي كُتب فيها شروط البيع والشراء بين الطرفين لمالك صاحب القافلة التجارية والذي وقف أمامهم يحادثهم وهو يشير بيده اليمنى صوب يوسف حيث جلس على مقعد أمام خيمة القافلة وقد علت رأسه هالة كبيرة بشكل شعلة لهب امتدت نحو الأعلى ، وقد أرتدى قفطاناً داخلياً علته جبة بأكمام طويلة فضفاضة زينّها شريط في منطقة العضد وهي سمة أخرى من سمات المدرسة العربية في التصوير ، ذلك أن الجباب في صور المدرسة العربية كان يؤطرها شريطاً زخرفياً أو كتابياً مغايراً في اللون للّون الجبة في منطقة العضد(١٩)، ومدّ يوسف يده اليمنى ليصافح بها إخوته الذين وقفوا صفاً منتظرين مصافحته ليودعوه ، اما مؤخرة المنمنمة برز خلف تلالها الخيام وجمال القافلة .

هذا ولم يقتصر تصوير حياة النبي يوسف على مخطوط يوسف وزليخا بنسخها المتعددة بل تعداه الى تصويرها في مخطوطات اخرى كما اسلفنا في مطلع حديثنا عن قصة يوسف وزليخا ، إذ ضمت مخطوطة حديقة السعداء صورا لأحداث اسلامية مختلفة كان من بينها قصة يوسف وزليخا ، ومخطوط حديقة السعداء هو الترجمة التركية لمحمد بن سليمان المعروف بفضولي البغدادي لكتاب روضة الشهداء لحسين بن علي البيهقي الشهير بالواعظي(٢٠).

توجد نُسخ عديدة لهذا المخطوط ، منها نسخة تحتفظ بها دار الكتب المصرية برقم ٨١ تاريخ تركي طلعت ، ورد في خاتمة المخطوط ان الكتابة تمت بقلم مير علي الهروي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م ، يتألف من ٢٥٠ ورقة مقاسها ٢٥,٥ x١٥ سم ، مسطرتها ١٥ سطر ، يتضمن ١٧ منمنمة(٢١)، كما يحتفظ متحف الفن التركي والإسلامي تحت رقم 1967 ، وهي

مؤرخة بعام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م ، وهي مؤلفة من ٢٨٢ ورقة مقاس ٢٧x١٦ سم تضم أحدى عشر صورة . وللمخطوط نسخ عديدة موزعة في المتاحف والمجاميع الفنية(٢٢).

فمن تلك النسخ ما تحتفظ به مجموعة سويستيل بباريس بنسخة غير مؤرخة تتألف من ٣١٠ صفحة مقاس ٢٢,٥x١٤,٥ سم ، وبها ثمانية صور ، وفي المتحف البريطاني في لندن نسختان الأولى محفوظة برقم Ms. Or. 12009، وهي من ٢٨١ صفحة مقاس ٢٧x١٦,٥ سم ، تضم خمسة عشر صورة . والثانية محفوظة برقم Ms. Or. 7301 ، مؤلفة من ٢٦٦ ورقة مقاس ٢٤x١٦سم وتضم أحدى عشر صورة ، أما نسخة سليمانية في استانبول Fatih 4321 مؤرخة بعام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣-١٥٩٤م طبقاً لبيانات النسخ ، مؤلفة من ٢٦٢ ورقة مقاس ٢٤x١٤ سم وتضم سبعة صورة ، وللمكتبة الوطنية في باريس نصيب من نسخ هذا المخطوط تحت رقم Sup. Turc. 1088 ، مؤلفة من ٢٧٥ ورقة مقاس ٢٧x١٦,٥سم ، تضم ثلاثة عشر صورة .

وفي متحف بروكلين – نيويورك نسخة اخرى محفوظة برقم No. 70. 143. وطبقاً لبيانات النسخ فأن الناسخ هو عزيزالله الحسين الكاشاني ، وكُتبت في دار السلام "بغداد" عام ١٠١١هـ/١٦٠٢-١٦٠٣م ، مؤلفة من ٢٩٠ ورقة مقاس ٢٤,٣x١٤سم ، وتضم تسعة صور(٢٣). وكذلك توجد نسخة في مجموعة أدوين بيني تضم اربعة صور ، كما لمتحف مولانا جلال الدين الرومي بقونيا نسخة يحتفظ بها تحت رقم Hemdem Celebi 101 ، وهي مؤرخة بعام ١٠١٣هـ/١٦٠٥م طبقاً لبيانات النسخ ، مؤلفة من ٣١٩ مقاس ٢٦x١٤,٥سم ، وتضم منمنمتان ، وتوجد نسخة أخرى في المتحف ذاته محفوظة برقم No. 4 مؤرخة بعام ٩٩٤هـ/١٥٨٥م ، وتضم أربعة منمنمات ، يضاف الى كل ما سبق من النسخ مجموعة من اوراق كثيرة متفرقة من نسخ أخرى في مجموعات ومتاحف العالم .

فمن نسخة دار الكتب المصرية احتلت احداث اخراج يوسف من البئر الصفحة رقم ثلاثون من صفحات المخطوط ، فنطالع المنمنمة وقد اكتظت بالرسوم البشرية ، احتل فيها يوسف الزاوية السفلية الشمالية وقد رسم صبيا ارتدى قميصا ابيضا وهو حاسر الرأس احاطت به هالة كبيرة من ذوات اسنة اللهب وقد أمسك به الملك جبرائيل "ع" وقد صور بهيأة رجل مسن التحى بلحية بيضاء اعتم بعمامة كبيرة وبدت من نظرات عيناهما انهما يتبادلان اطراف الحديث ، اما اخوة يوسف وعددا من افراد القافلة فقد احتلوا يمين المنمنمة من مقدمتها حتى مؤخرتها وقد وقفوا على المروج الخضراء المزدانة بالأزهار ذات الالوان الزاهية وقد انشغلوا بالحديث الذي بدا حديث تعجب ودهشة مثّله الفنان اصدق تمثيل بلغة الجسد التي تمثلت بنظرات العيون وحركات

الايدي والاصابع الموضوعة في الفم والتي كانت مدرسة بغداد السباقة فيها ، بينما أمسك احدهم بحزامه بكلتا يديه وقد استغرق في التفكير حيث اشاح بوجهه صوب مقدمة المنمنمة مخالفا في ذلك جميع افراد المنمنمة الذين كانت وجوههم صوب احد الاتجاهين ، فيما احتلت مؤخرة المنمنمة عددا من الماعز الجبلي ، لتنتهي تلك المؤخرة مع حدود الافق الذهبية بانتصاب شجرة فوق قمة الجبل وقد وقفت امرأة عن جانبها .(منمنمة رقم ٦)

اما نسخة متحف الفن التركي والاسلامي فواحدة من منمنماتها صورت لنا يوسف بعد أن أخرجه مالك صاحب القافلة التجارية من البئر . فقد جاء في الكتاب الكريم بسم الله الرحمن الرحيم "**وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بُشرى هذا غلام وأسروه بضاعةً والله عليمُ بما يعملون**"(٢٤)صدق الله العظيم .

نشاهد يوسف جالساً على الأرض وهو صبي مرتدياً قفطاناً برتقالي اللون شد وسطه بحزام ، وعلت رأسه الشريف عمامة بيضاء وقد أحاطته هالة أشبه بشعلة النار ابتداء من كتفه متجهة نحو الأعلى ، وقد دأب مالك بفك قيوده ، وقد أرتدى قفطاناً أصفراً شد وسطه بحزام أزرق يعلوه جبة حمراء . وكان أحد العبيد جالساً قرب قدمي يوسف وهو يفك قيود قدميه الكريمتين ، فيما وقف شخص بجانبه ممسكاً بثوب جديد يريد أن يلبسه إياه .

أما القافلة التجارية فهي تسير بين المروج المعشوشبة ، فنشاهد الجمال والخيول في مؤخرة المنمنمة وقد أعتلاها نساء ورجال وحُملت على ظهورها الصناديق المحملة بالبضاعة وهي تسير من يمين المنمنمة الى يسارها ، ارتدت أحدى النساء جلباباً(٢٥)أبيضاً غطى جسمها باستثناء الوجه ، أما المرأة الثانية خلفها فقد ارتدت جبة(٢٦)زرقاء ذات أكمام واسعة جداً(٢٧)، كما وانها غطت وجهها بنقاب(٢٨).

صور مالك بحجم أكبر حتى من حجم يوسف والذي يفترض أن يكون الشخص الرئيس الذي تدور حوله أحداث الصورة ، وربما أراد الفنان أن يركّز على مسألة صغر عمر يوسف في حينها ، ويغلب على الصورة الحركة الدؤوبة لأفراد القافلة الذين توزعوا في أغلب أرجاءها .(منمنمة رقم ٧)

ومن المخطوطات الاخرى والتي تناولت بين طياتها قصة يوسف مخطوط روضة الشهداء بنسخته الاصلية العربية والتي هي من تأليف غلام حسين يوسفي الكاشفي الواعظ ، وهو يتناول شهادة الأمام علي "ع" ، عائلته وأسلافه في العصر التوراتي . ألفه عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢-١٥٠٣م ، وله نسخة واحدة مزوقة بالصور أنجزت في بغداد يُرجح أنها تعود

لعام ٩٩٩هـ/١٥٩٠م ، محفوظة في برلين تحت رقم Ms. Diez. A. fol. 5 ، وهي تقع في ٢٣٩ ورقة أبعادها ٢٨x١٧,٥سم ، وتضم أثنى عشر صورة(٢٩).

ففي احدى المنمنمات والتي توسطها يوسف جالساً على مقعد مستطيل وارتدى قفطان ازدان بزخارف دقيقة ووضع شال على رقبته وقد تدلى طرفي الشال على صدره الشريف ، وعلت رأسه عمامة بيضاء ذات طيات متعددة ، وامسك بيده اليسرى منديلاً ، واحاطت جسده من منتصفه الى ما فوق رأسه بمسافة هالة شبيهة بشعلة اللهب .

احاط يوسف جمعاً غفير من الناس فقد حضروا ليشتروه بعد ان عرضه مالك رئيس القافلة التي عثرت عليه للبيع في سوق النخاسة . نشاهد ان اغلب الحضور قد امسكوا بأيديهم اكياس نقود بيضاء يبدو انها من القماش ، وراح الجميع يحدق النظر في يوسف وقد اخذهم جماله واسكتهم عن اي حديث فاصبحوا اشبه بالتماثيل . ارتدى اغلب الحاضرين جباب واسعة فوق قفطان داخلي او فوق قميص وسروال ، او ارتدى بعضهم قفاطين مزينة بالزخارف ، وغطت رؤوس الجميع عمائم شبيهة بعمامة يوسف ، فيما غطت رؤوس البعض الاخر طاقية ذات قاعدة من الفرو ، او طاقية تميل الى الاستطالة .(منمنمة رقم ٨)

وعند النظر الى المنمنمة يتبين لنا على الفور بصمات فناني مدرسة بغداد في العهد العثماني ، بطريقة رسم التجمعات البشرية التي تتميز باحتشادها على جهة واحدة وغالباً ما تكون اليمنى ، وقلة عدد الاشخاص على الجهة المقابلة ، كما وتتميز بوجود شخص يحاول اقتحام الحشود من احدى زوايا المنمنمة فنراه يظهر جزء من جسمه خارج اطار المنمنمة وهو يهم بدخولها ، كما وتتميز رسوم الاشخاص بقصر القامة وكِبر الرؤوس ، اضافة الى وجود شرفة او غرفة في مؤخرة الصورة يطل منها عدد من الاشخاص للنظر الى ما يدور في الاسفل ، وهنا جلس كُل من عزيز مصر وزوجته زُليخا والى جانبهم احد غلمانهم ، **توجت رؤوسهم بتاجين** كثيراً ما عهدناها في منمنمات المخطوطات الدينية ، فهي مؤلفة من قاعدة متعرجة يعلوها بدن اشبه بالخوذة ، لكن الاختلاف بين التاجين ان تاج عزيز مصر ينتهي بقطعة بارزة الى الاعلى ، اما تاج زُليخا فانه انتهى من الخلف بقطعة طويلة لُفت في نهايتها ، واخذت زليخا تتحدث الى زوجها وهي تشير بسبابتها اليمنى ، فيما راحت امرأة تنظر الى الجميع بدهشة وقد وضعت سبابة يدها اليسرى على فمها وقد جلست في غرفة مرتفعة جداُ حتى برزت عن حدود اطار الصورة .

والى جانب كل ما سبق ذكره تجدر الاشارة الى ان تصوير يوسف لم يقتصر على رسمه في مشهد مكتظ او محتشد بالحاضرين ، بل رسمه الفنان بصورة شخصية او ما يعرف بفن "البورتريه" ، إذ نجد الكتب الادبية والتاريخية تفيض بذكر أمثلة كثيرة لرسوم شخصية تم انجازها

في بقاع مختلفة من العالم الاسلامي في عهود متباينة ، وعلى الرغم من ان معظمها لا يمكن ان يكون صورة شخصية بالمفهوم المعروف عنها إذ انها من نسج خيال الفنانين ، ولكن لبعض هذه الاشارات التاريخية مدلولات تشير الى معرفة هذا الفرع من فروع التصوير(٣٠).

فقد اغنتنا المخطوطات المزوقة بالصور بالعديد من الصور الشخصية للأنبياء "ص" والخلفاء والملوك والامراء والسلاطين ومنها على سبيل المثال مخطوط زبدة التواريخ(٣١)، ويطلق على نسخ هذه المخطوط تسميات اخرى كسلسلة نامة وايضا سبحة الاخيار وشجرة النسب(٣٢)، ولهذا المخطوط نسخ عديدة توزعت بين متاحف ومجاميع العالم الفنية(٣٣).

فمن الصور الشخصية والتي صورت لنا يوسف منمنمة تعود لنسخة من مخطوط سبحة الاخيار والمحفوظ في دار الكتب المصرية تحت رقم (٣٠تاريخ تركي خليل أغا) صور لنا الفنان يوسف وهو جالس القرفصاء في منتصف دائرة ذهبية شبيهة للدوائر التي احاطت بالأشخاص الذين شاركوه صفحة المنمنمة هذه ، ظهر واضعا كلتا يديه على فخذيه ويوجه نظراته صوب رجل مسن ، بدا يوسف بمقتبل العمر وقد لاث عمامة بيضاء كبيرة على رأسه وقد ارتدى قفطان اخضر داخلي يعلوه قفطان احمر مزين بزخارف ذهبية ، هذا وقد احاطت به هالة كبيرة الحجم جدا ابتدأت من منتصف يديه لترتفع عاليا بأسنتها اللاهبة .(منمنمة رقم ٩)

ويذكرنا هذا النوع من الرسوم الشخصية بالصور الشخصية لسلاطين آل عثمان والتي اصبحت شائعة جدا في هذه الفترة ، إذ نبغ عدداً من الرسامين في زمن السلطان سليمان ومنهم المصور "عثمان " (٣٤) والرسام "نيجاري " الذي بدأ بنقل الصور الاوربية ثم انه ابدع في رسم الصور الشخصية "portrait" (٣٥)، كما انه كان ينقل لوحات المصور الفرنسي كلويه Clouet "مصور الامبراطور فرنسوا الاول(٣٦).

ومن اشهر تلك المخطوطات المزوقة بالرسوم الشخصية مخطوط القيافات الانسانية في الشمائل العثمانية المنتج في زمن السلطان مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) ، إذ احتوت على اثنا عشر صورة للسلاطين العثمانيين بدءا من السلطان عثمان الاول وحتى السلطان مراد الثالث(٣٧).

وقد اصطبغت رسوم نسخ زبدة التواريخ او سبحة الاخيار بالطابع الفني لرسوم الصور الشخصية لسلاطين آل عثمان من نواحٍ عدة ، فمن ناحية الجلوس فالجميع يجلس القرفصاء بأسلوب مهيب ، اضافة الى اللباس الفخم المتمثل بالقفاطين او الفرجيات المزدانة بالزخارف

الذهبية البديعة ، في حين تغطي الرؤوس عمائم بيضاء ذات طيات متعددة ، اضافة الى المناديل التي يحملها الاشخاص في ايديهم .

ونَخلُص في ختام بحثنا هذا الى جملة من الامور من اهمها :

١- غلب على نسخة دار الكتب المصرية (٧٦_ م ادب تركي) الغنى الزخرفي والذي طال جميع تفاصيل المنمنمات سواء اكان ما يتعلق بلباس الاشخاص او الاثاث او حتى التفاصيل المعمارية ، وتمثلت تلك الزخارف بالزخارف الهندسية المتنوعة حتى غدى البعض منها كحشوات ضمت داخلها زخارف نباتية متعددة ، هذا وقد غلب التذهيب على تلك الزخارف وهو ما اعطى مسحة جمالية للمنمنمات زادت التدرجات اللونية البراقة في بهجتها .

وتبعا للمعطيات السابقة الذكر يجعلنا ذلك ان نرجح ان هذه النسخة قد تكون انجزت لشخصية ذات مكانة مرموقة في المجتمع ، او انها قد تم عملها بهذه الجمالية والتقنية من اجل ان تُهدى كإحدى الهدايا الثمينة ، ذلك انه كثيرا ما شهدنا تقديم المخطوطات المزوقة بالمنمنمات في العصر العثماني كهدايا للسلاطين او الصدور العظام نظرا لما كان يتمتع به فن تزويق المخطوطات بالمنمنمات من اهمية لدى هؤلاء السلاطين وحاشيتهم .

فبمجرد النظر الى لباس الاشخاص واثاثهم وطريقة تقسيم اجزاء المنمنمة يتراود الى اذهاننا وعلى الفور المخطوطات العثمانية القيمة والتي انتجت صفوتها خلال القرن العاشر الهجري (١٦م) .

٢- اما نسخة دار الكتب المصرية الثانية لمخطوط يوسف وزليخا فهي نسخة متقنة العمل جيدة الالوان والنسب ، إلا انها لا تصل الى فخامة وجودة النسخة الاولى . ولو امعنا النظر في منمنمات هذه النسخة لاكتشفنا حجم الشبه الكبير الذي يجمعها بمخطوط قرق سؤال المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٧ كلام تركي طلعت) ، وهي احدى المخطوطات الدينية الغير مؤرخة وقد رجحنا انتاجها في زمن السلطان مراد الثالث لجملة من الاسباب(٣٨) ، ويدفعنا هذا التشابه وتلك الاسباب وفقا للمعطيات التي اوردناها في مخطوط قرق سؤال الى ارجاع نسخة مخطوط يوسف وزليخا هذه الى فترة السلطان مراد الثالث اي بين عامي ٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م .

٣- اما منمنمات مخطوط حديقة السعداء ومخطوط روضة الشهداء فأنهم اصطبغا بأسلوب بغداد في التصوير في العهد العثماني ، بغداد التي كانت مركزا فنيا اصطبغت منمنمات مخطوطاته بالصبغة الصوفية ، ولا عجب في ذلك إذ انها كانت مركزا للصوفية .

٤- تفاوت المرحلة العمرية التي صور بها يوسف إذ ظهر بين صبي صغير وشاب في ريعان الشباب ، وقد احاطت برأسه في اغلب المنمنمات هالة اختلفت احجامها بين منمنمة واخرى ، فمنها ما قد احاط برأسه فقط ومنها ما شملت جسده من المنتصف حتى ارتفعت نحو الاعلى فوق رأسه ، اما من ناحية النوع فجميع تلك الهالات كانت بهيأة اسنة اللهب التي تعددت رؤوسها المسننة وازدوجت .

٥- اشتملت المنمنمات في جميع نسخ المخطوطات السالفة الذكر على نصوص كتابية حَصرت داخل حشوات مستطيلة في اعلى واسفل الصورة ، باستثناء المنمنمة الثالثة فقد ضمت حشوة كتابية واحدة فقط في اعلى المنمنمة ، اما المنمنمة التاسعة فقد غطت النصوص الكتابية المساحة الشاغرة بين رسوم الاشخاص بعضها داخل حشوات دائرية وبعضها الآخر دون حشوات ، وكانت هذه الحشوات الكتابية في أغلب الاحيان تمتد حتى تصبح على تماس مع الاطار الخارجي للصورة . ولم نستطع ان نترجم تلك النصوص لأننا لم نتمكن من العثور على مختص بترجمة اللغة العثمانية القديمة في العراق .

٦- كانت المنمنمات غنية برسوم الازياء بمختلف انواعها سواء ملابس الرأس او البدن او القدم ، كما كانت غنية برسوم العمائر لاسيما القصور وما بدى عليها من فخامة وغنى زخرفي .

الهوامش:

1-Bagci (S.),Gagman (F.),Renda (G.),Tanindi (Z.) .Ottoman painting,Turkey,2010,p.65

٢-نور،حسن محمد . التصوير الاسلامي الديني في العصر العثماني،جامعة جنوب الوادي – كلية الاداب بسوهاج ، ١٩٩٩، ص١٢١

٣- توفي في ذي القعدة عام ٩١٤هـ/١٥٠٩م ...

Minorsky(V.).The Chester Beatty library a catalogue of the Turkish,manuscripts and miniatures,Dublin, 1958 ,p.50

4-Mus (Z.).Arap ve Turk Edebiyatlarinda Yusuf u Zuleyha Hikayelerinin Mukayesesi ,Marmara Universitesi Sosyal Bilimler Enstitusu Temel Islam Bilimleri Anabilim Dali Arap Dili ve Belagati Bilim Dali yayimlanmamis yuksek lisans, 2000,p.26

٥- صلاح الدين.يوسف. يوسف وزليخا دراسة تصاوير مخطوط نادر لملا جامي، دراسات آثاريه اسلامية،مج٤ ،القاهرة،وزارة الثقافة،هيئة الآثار المصرية،مطبعة هيئة الآثار المصرية،١٩٩١،ص٢٣٨

٦- المصدر نفسه ، ص٢٣٨

7-Arnold (T) . Painting in islam , New York, 1965, p.25

8-Meredith-Owens(G.)."A sixteenth-century illustrated Turkish manuscript at Manchester"Atti del secondo congress internazionale di arte Turca, Venezia, 1962 , pp.191-192

[٩]-فهرس المخطوطات التركية العثمانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ،القسم الرابع (ل-ي)،١٩٩٢،ص ص ٢٧٧-٢٧٨

10-Grube(E.).Islamic paintings from the 11th to the 18th century in the collection of Hans P. Kraus, New York,1972,p.241

11-Minorsk, The Chester Beatty library ,p.50

12-Meredith."A sixteenth-century illustrated Turkish",p.192

[١٣]- نشرناها لأول مرة بأذن من دار الكتب المصرية ضمن اطروحة الدكتوراه الموسومة "مدرسة التصوير العثماني في عصر الوثائق التاريخية ١٥٢٠-١٦٢٢م في ضوء صور المخطوطات" عام ٢٠١٦ ، صورة رقم ٩١

[١٤]-القرآن الكريم،سورة يوسف،الآية ٣١

[١٥]-وهو من ألبسة القدم وسُمي كذلك لخفته وهو يحيط بالقدم...النعيمي،ناهدة عبد الفتاح.مقامات الحريري المصورة،رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الآداب قسم الآثار،بغداد،١٩٦٩،ص١٧٥

[١٦]-أوعية يحفظ فيها الشراب لها عروة وفم وبلبلة...أبن سيدة،ابي الحسن علي اسماعيل(ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م). المخصص،المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق،ط١،مصر،١٣١٨،ج١١،ص ٨٤

[١٧]- تُسمى بسجاجيد عشاق نسبة الى مدينة عشاق واحدة من اشهر مدن انتاج السجاد في العصر العثماني ، يتوسط هذه السجادة سرة بيضوية الشكل وتسمى احياناً بالبخارية وتُزين هذه السرة بزخارف نباتية دقيقة ، او وجود نصف بخارية في جانبي المتن الايمن والايسر او سرة بيضاوية الشكل تتوسط السجادة وارباعها في الاركان ...

مرزوق ،محمد عبدالعزيز. الفنون الزخرفية الاسلامية في العصر العثماني،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٤ ، ص ١٢٧

[١٨]-القرآن الكريم،سورة يوسف،الآية ١٩

[١٩]-البدري،شيماء جاسم .مدرسة التصوير العثماني في عصر الوثائق التاريخية ١٥٢٠-١٦٢٢م في ضوء صور المخطوطات، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاثار جامعة القاهرة ، مصر،٢٠١٦،ص٧٤

[٢٠]-وهو غلام حسين يوسفي المعروف بـ"الواعظ" او "المبشر" كاتب ومبشر فارسي ، عاش في نيسابور ومشهد ، وقضى اخيراً في هرات حوالي عشرون عام خلال حكم السلطان حسين بايقرا، وقد عاصر جامي ، ويبدو أنه ملتزم بالطريقة النقشبندية للصوفية ، وروح التصوف واضح في كتاباته . وبعض أعماله تعكس ميولاً شيعية وخاصة في "روضة الشهداء" والتي تقف في تناقض مع النقشبندية السنية...

Milstein,miniature painting in Ottoman Baghdad,1990,p.106

[٢١]- فهرس المخطوطات التركية التي اقتنتها دار الكتب القومية منذ عام ١٨٧٠ حتى نهاية ١٩٨٠م ، القسم الاول (١-ح) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧، ص ٣٤٥.

22-Milstein,miniature painting ,pp.100-105

23-Atasoy(N.),Gagman(F.).Turkish miniature, Istanbul ,1974,p.91

[٢٤]-القرآن الكريم،سورة يوسف،الآية١٩

[٢٥]-وهو رداء تغطي به المرأة رأسها وصدرها أو تجلل جميع جسمها...ابن منظور،جمال الدين محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ/١٣١١م) .لسان العرب،ج١،دار صادر، بيروت، ص٢٧٣

[٢٦]-وهي من الثياب المفصلة والمخيطة ولها أكمام تحيط باليد...ابن سيدة،ج٤،ص٣٦

[٢٧]-أستغلت سعة الأكمام ليحفظ بها صاحبها بعض الأشياء كالدنانير...التنوخي،ابو علي المحسن بن علي القاضي(ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م).الفرج بعد الشدة،دار الطباعة المحمدية،القاهرة،١٩٥٥،ج٢،ص٢٢٤

[٢٨]-وهو خمار وجه تستعمله النساء وهو قطعة قماش بطول ذراع او أكثر وعرضه أقل من ذلك ...رشدي،صبيحة رشيد.الملابس العربية وتطورها في العهود الأسلامية ،ط١، ١٩٨٠،ص٤٤

29-Milstein,Miniature painting,p.106

Atasoy,Gagman.Turkish miniature,p.83

[٣٠]-خليفة ، ربيع حامد. فن الصور الشخصية في مدرسة التصوير العثماني ، ط ٢، مكتبة زهراء الشرق ،القاهرة ، ٢٠٠٦، ص٦.

[٣١]-وهو من اهم الاعمال التاريخية التي انجزت في زمن السلطان سليمان القانوني وكان يعرف بـ"شاهنامة آل عثمان"، إذ يبتدأ العمل بخلق الكون وحياة النبي الاكرم "ص" والخلفاء وينتهي بسلالة آل عثمان ، واضيفت اليه احداث لاحقا وبناءا على طلب خاص وحسب ما ورد في المقدمة قام الشاهنامجي سيد لقمان بتحويل مخطوط "طومار همايون" الى مخطوط بعنوان "زبدة التواريخ"...

Yetkin(S.)."An illuminated manuscript of the Zubdat-Al-Tavarh(The cream of histories)",Atti del secondo Congress Internazionale di arte Turca,Venezia,1962, p.277

Bagci and others.Ottoman painting,p.133

[٣٢]-خليفة ، ربيع حامد. مدارس التصوير في ايران وتركيا والهند في القرن ٩هـ/١٥م وحتى القرن ١٣هـ/١٩م،ط١،القاهرة،٢٠٠٧، ص٢٨٢

[٣٣]- للتعرف على نسخ هذا المخطوط ينظر ...

البدري،مدرسة التصوير العثماني، ص١١٠-١١٢

[٣٤]-رسام من أصل بوسوني ولد بداية القرن ١٠هـ/١٦م وجاء الى استانبول للدراسة ونقل كصبي للمرسم السلطاني فتدرب على يد رئيس المرسم فتعلم بسرعة وكثرت أعماله وذاع صيته الى ان أمر السلطان مراد الثالث بتوليته منصب رئيس المرسم "نقاش باشي" ولقد تأثر أسلوبه كثيراً بأسلوب قرام ميمي رئيس المرسم السلطاني ،وبذلك اصبح أشهر رسامي المرسم السلطاني في عهد السلطان مراد الثالث وأكثرهم انتاجاً،وقد تم الإشارة أليه بالمديح في الوثائق الأرشيفية وفي النصوص التاريخية بأنه ذا موهبة وله منزلة تقديرية عالية بين الرسامين...

Onder(M.).The Museum of Turkey and Examples of the Masterpieces in the Museum ,Istanbul,1983, p237

Atil(E.).The Art of the Book-Turkish Art,1980,p.198

Atasoy,Gagman,Turkish Mininature,p.35

[٣٥]-عبدالحميد،سعد زغلول.العمارة والفنون في دولة الاسلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية،ص٥٦٦

[٣٦]-حسن،زكي محمد.فنون الاسلام ،ط١،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،١٩٤٨،ص٢١٧

37- Fontana,La miniature islamica,1998,p.132-133

[٣٨]-قمنا بدراسة هذا المخطوط في اطروحة الدكتوراه "مدرسة التصوير العثماني في عصر الوثائق التاريخية " ، ص٢٣٤-٢٣٨

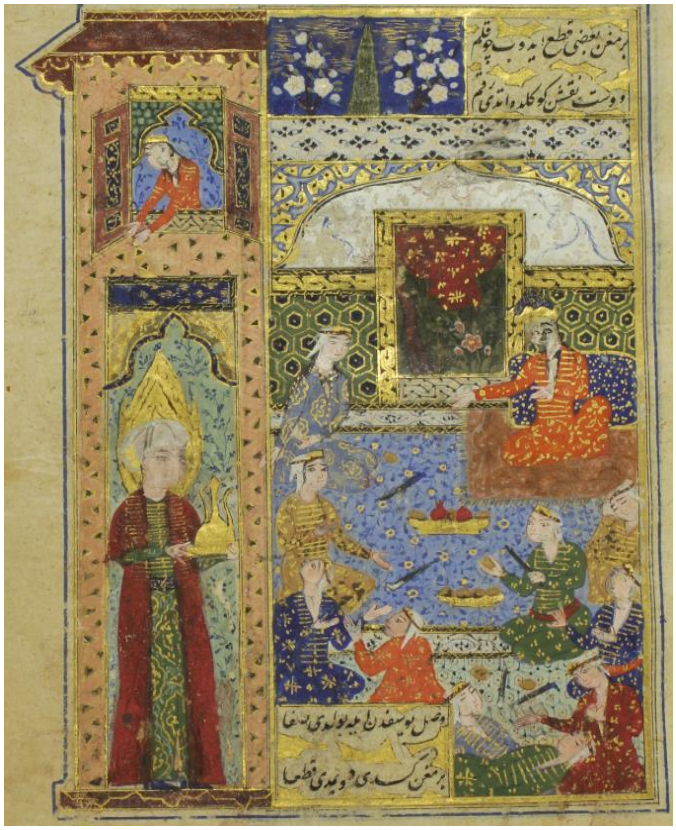

منمنمة رقم (١)

منمنمة رقم (٢)

منمنمة رقم (٣)

منمنمة رقم (٤)

منمنمة رقم (٥)

منمنمة رقم (٦)

منمنمة رقم (٧)

منمنمة رقم (٨)

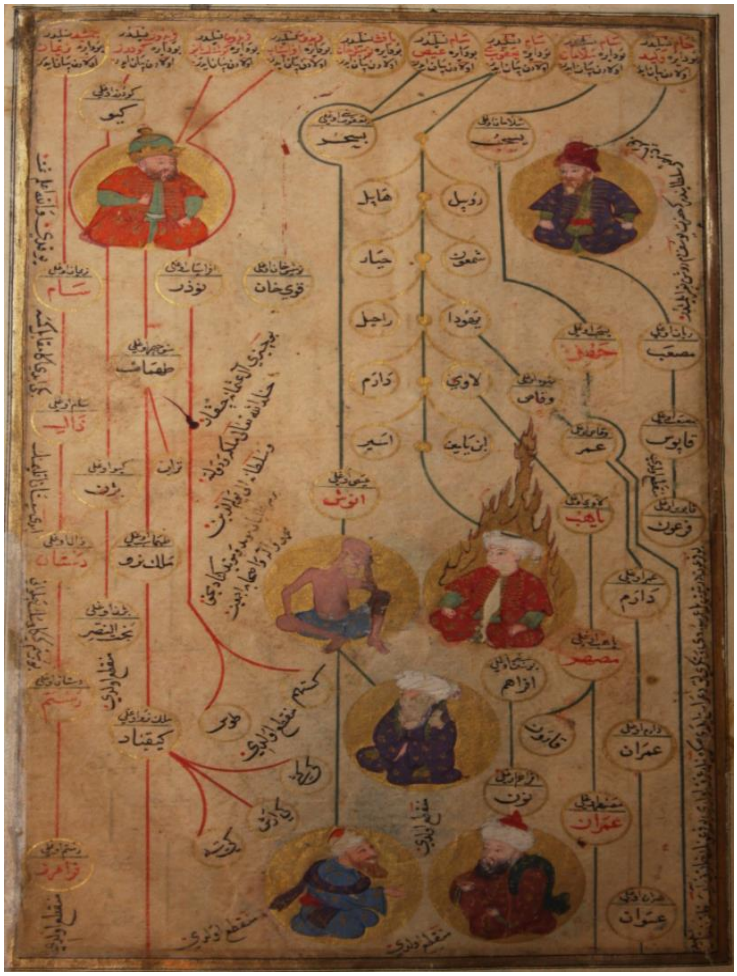

منمنمة رقم (٩)